جورج سفيريس كما عرفته

جورج تيوتوكاس

ثمة ظاهرة استرعت انتباهي ، وهي انه ما من احد من النقاد الذين اكبوا على مؤلفات جورج سفيريس عني بموضوع هام: موضوع ابيه. امامي الآن المجلد الضخم «الى سفيريس»، المنشور تكريماً للشاعر ، وتراني انظر الى فهرس اسماء العلم الواردة في المجلد فلا اجد اسم الاستاذ ستيليانوس سفرياديس مذكوراً ولو مرة واحدة . ومع ذلك فأثر الاب ، سلبياً كان ام ايجابياً ، في تكوين الكاتب هو دائماً موضوع اساسي من عدة نواح ؛ ولكن عندما يحدث (وهذا نادر) ان والد الشاعر قد كتب هو نفسه قصائد ، فانه يبدو لي انه من الضروري الرجوع الى هذه النصوص اذا كنا نريد ان نتعرف الى نقطة انطلاق الكاتب الذي نعتزم دراسته ، كما ينبغي التعرف الى العوامل الروحية الأولى التي اثرت في طفولته وحداثته بصورة لا تزول .

قام سفرياديس الاب بدراسات حقوقيـــة طويلة ولامعة في فرنسا ، ومارس مهنة المحاماة في ازمير وبعدها في باريس مدة من الزمن ، قبل ان يعين استاذ الحقوق الدوليـــة العامة في جامعة اثينا . ومن جهة ثانية فقد اسهم بصورة ملحوظة في حياة عصره الادبية وفي الكفاح من اجل احلال اللغة العامية مكان الفصحى ؛ وهو كفاح كانت تقوم بـــه المدرسة الاثينية الحديثة ، وعلى رأسها بالاماس . وقد اشترك في تحرير مجلة « نوماس » ومجلات اخرى تصدر في اثينا وازمير ، وكتب قصائد عديدة جمعها في اواخر حياته في مجلد ضخم بعنوان « من قاع درجي » . وقد الف ايضاً مسرحيات شعرية مستوحاة من التقاليد الشعبية ، وترجم لسوفوكل في ابيات موزونة كما ترجم لبايرون ولبعض الكتاب اللاتين ولشعراء محدثين فرنسيين حتى فاليري . وثمة قصيدة من عهد الصبا بعنوان « الى لغتنا » هي تقديس حقيقي للغة الشعبية ، واخرى بعنوان « ابنة الكاهن » بقيت عالقة في ذاكرة بعض معاصريه :

اذكرها ، اذ كنت وليداً ،
وهي تصعد على مهل بعينيها المطرقتين
ملائكية ، شاحبة ، شديدة الجمال
درجات الكنيسة الحجرية .

جورج تيوتوكاس ، كاتب هذا المقـــال ، من اشهر الادباء المعـاصرين في اليونان . وهو يكتب هنـا بعض ذكرياته الشخصية وتحليلاته النقـــدية لجورج سفيريس ، الشاعر اليوناني الكبير الذي كان آخر من حـــاز على جائزة نوبل للأدب . وجـــدير بالذكر ان كلاً من جورج سفيريس وصاحب المقال هما من هيئة تحرير مجلة « ايبوك » ، شقيقة « حوار » اليونانية .

فكان اولاد القرية يتفرقون لدى مرورها
والشحاذون يقولون بصوت خافت :
ليحالفك الحظ والمغفرة .

ويلوح لي انه من المفيد حقاً كتابة دراسة مع اخذ هذه الامور كلها بعين الاعتبـــار ومع البحث بصورة منهجية عن العلاقات ، او بالاحرى عن الفوارق ، بين الاب والابن في حقل الشعر ، على شرط ان لا يقتصر هذا البحث على مقارنة الآثار ، كما يحدث غالباً ، لانه ليس من الممكن فصل الكتابات عن حياة اصحابهـــا . ومهما يكن من امر ، فالذي يهمنا في الدرجة الاولى هو المناخ الادبي للبيئة التي ولد فيها الشاعر الشاب وترعرع في كنفها ووعى فيها رسالته . ولا ريب بان العناصر المكونة لهذا المناخ هي انطلاق اللغة المحكية وادب اوائل القرن العشرين من جهة ، والثقافة الفرنسية من جهة ثانية . ومن هذا

الزواج الروحي انبثق سفيريس ، والنقاد الذين يتغاضون عن ذلك يضلون الطريق السوي بسهولة .

ولست بحاجة هنـــا لان اكتب دراسة ، بل اني اخذت على عاتقي ان اسرد بعض ذكريات شخصية عن الصبا كما تكتب المذكرات . ولقد تعرفت فيما مضى الى عائـــلة سفرياديس (ما عدا الام التي كانت قد توفيت) : فلقد كان الاب استاذي ، وكان الولدان الاصغران جان وانج رفيقيّ الدراسة وصديقيّ . اما الاخ البكر جورج فقد كان موظفاً في وزارة الخارجية ، وكان يعيش منزويا ، يكره الصلات الاجتماعية ، ولم اكن قد رأيته بعد . وكل ما كنت اعرفه عنه انه كان يقرأ كثيراً وان اسمه قد ظهر في مجلة « نياهستيا » التي نشر فيها ترجمة « امسية مع السيد تيت » لفاليري .

وشعرت عندما توجهت للاجتماع به لاول مرة بشيء من الوجل . فلقد كان الشاب الذي ذهبت لرؤيته يكبرني ببضع سنوات ، والفارق في السن يحسب حسابه في هـــذه المرحلة الاولية من الحياة . فكان قد بدأ حياته المهنية ، في حين اني لم اكن قد انسلخت تماماً عن مقاعد الجامعة . وقد ساعدتني جان وقادت المحادثة بطريقة جعلت صفاتي تبرز بوضوح . وقد اظهر جورج سفرياديس طيبة نحوي ، وفهمت اننا سنصبح صديقين بسهولة . وقد صرح لي فيما بعد ان دخولي معترك الحياة الادبية ولقـــاءنا الاول ذكراه ببطل من ابطال ستندال ، هو الفتى فابريس ديل دونغو في كتاب « لا شرتريز دي بارم » . وفي كثير من التحارير التي وجهها اليّ والتي احفظها يدعوني « بيا عزيزي فابريس » .

وكنا في الواقع قد اصبحنا صديقين . وفي خلال بضع سنوات ، عندما كان جورج في اثينا ، كنا غالباً ما نتلاقى اما نحن الاثنين واما في اغلب الاحيان مع كاتز مباليس ، وكان الناس يدعوننا « بالجورجات الثلاثة » ، وكنا نطوف على الحانات الليلية وخاصة باربا باني المشهورة في ذلك الحين . وكنا نتناقش امام الطاولات الصغيرة في ساحة الدستور ، كما كنا ننسى انفسنا في نزهات ليلية لا تنتهي في شوارع المدينة المقفرة . والواقع اننا كنا نشترك في اشياء كثيرة : ففي السياسة كنا من المتحررين ، وفي الآداب كنـــا من دعاة اللغة المحكية وتحت تأثير الثقافـــة الفرنسية . كنا نحترم تراث سولوموس وبالاماس ، ومتحفظين وحذرين بالنسبة لكافافي وكاريوتاكيس ، وكانت صلاتنا الادبية بالقرن العشرين تنعقد من خلال فرنسا .

وكنـــا ، جورج سفرياديس وانا ، نحب بروست وفاليري وكلوديل واندره جيد ونحس بمتعة كبيرة لدى مطالعتنا « لانوفيل ريفي فرنسيز » . اما فيما عدا ذلك فلقد كان لكل منا ذوقه الخاص ، فمثلاً كان جورج سفرياديس شديد التعلق بجيمز جويس وروايته « يوليسيز » ، في حين اني لم اكن كذلك ، على ان اساس تكويننا كان واحداً وكنا على توافق طبيعي .

وكثيراً مـــا كنت اذهب عند آل سفرياديس ، في دارتهم القديمة قرب المتحف الاركيولوجي ، فكنت التقي ايضاً الاستاذ . لقد كان رجلاً ذا شخصية قوية ، حـــلو المعشر ، دائم الابتسام مع ضيوفه ، دائم الاعتناء بلحيته الصغـيرة ، ودائم الاناقة ، لا ترى أيّ محنية في ثيابه . كان يحب النساء ، ويظهر اهتمامه الشديد بهنّ فيكثر من تقبيل اياديهن ويبدي كثير التأدب ازاءهن على طريقة ما قبل الحرب الكونية الاولى . كان شديد الميل الى الالقاب والتكريم والاستقبالات الرسمية ، وفي الحيـاة الاجتماعية كان يتصرف بلباقة الغربي المهذب، ولكني كنت أشعر انه كان يختلف عن ذلك في علاقته مع اهله : اذ كان قاسياً ، مستبداً ، على طريقة الشرقيين القدماء ؛ فلقد كان كثير التطلب مع اولاده ، لا ادري كيف ، ولم اكن احاول ان اعرف ذلك ؛ وكثيراً ما كان يظهر غضبه لأن الامور لم تكن تجري على ما يشتهي . وكنت اشعر انه كان دوماً بـين الاب وولديه جو متوتر كما يقال ، ولا اذكر ان هذا الجو زال في يوم من الايام . كان الاب يحب ان يعبر عما يجول في خاطره ، مع ميـــل الى التبسط ، في حين ان ولديه كانا منكمشين على على نفسيهما ، يخفيان شعورهما . لقد كان الاب والولدان دائمي الانقباض في علاقاتهم. اما جان فكانت تعمل على تأليف القلوب وتتوافق مـــع الثلاثة وتعالج القضايا العائلية بأناة وحنكة وتتوصل دائماً الى المحافظة على التوازن .

وفي يوم من الأيام اخذت وجورج نتحدث عن اصلنا المشترك ، وعن مشاكلنا المشتركة التي لا علاقة لها بالأدب . كنا نحن الاثنين لاجئين ، ولدنا وترعرعنا هو في ازمـير وانا في القسطنطينية بين يونان الامبراطورية العثمانية الذين يحلمون بالاستيلاء على هذه المدينة الاخيرة لبعث مجد بيزنطة القديمة . كنا نشعر بشيء من المرارة من جراء اقتلاعنا من آسية الصغرى بعد انهزام اليونانيين سنة ١٩٢٢ ، وكنا نطمح في ان نصنع لأنفسنا جذوراً جديدة ، في ان نصبح اثينيين . وشاءت الصدف ان نكون نحن الاثنين ابني متشرعـين . وقد تحدث

جورج عن والدينا على هذه الصورة :

« ان ما قام به هذان الرجلان ليس بالشيء اليسير . لقد نجحا في تركيا ، ثم نجحا مرة ثانية هنا بعد أن وصلا معدمين لا يملكان بارة الفرد وعلى عاتقهما مسؤوليات عائلية جسيمة . ويجب الاعتراف بأن هذا ليس بأمر هين » .

لقد كان يتحدث عن ذلك بشيء من الافتخار وبشيء من الحنين ، كما لو انه يضمر بأنا نحن الاثنين لا نستطيع عمل ما قاما به لأننا لسنا في مرتبتهما في القضايا المادية .

وفي احدى الامسيات ، وبينما كنا نتحدث من جديد وحيدين في بهوه ، نهض جورج فجأة وبدون سابق انذار وقال :

« تعال الى غرفتي ، فإني اريد ان أريك شيئاً » .

وقادني الى غرفة صغيرة يستعملها في الآن ذاته كغرفة نوم ومكتب ، وأجلسني امام طاولته ووضع امامي دفتراً ، وقال :

« اقرأ هذا وقل لي رأيك فيه » .

وجلس قبالتي وأخذ ينظر إليّ دون ان ينبس ببنت شفة ، وهو يراقب انفعالاتي . كان ذلك مخطوطة « ستروفي » في حلتها النهائية . ولا استطيع القول اني قرأت بانتباه كلي في ذلك اليوم ، بل الاصح القول بأني تصفحت هذه المخطوطة واخذت عنها فكرة عامة دون النظر في معنى كل مقطع . لقد كانت انطباعاتي حسنة ، ومنذ اللحظة الاولى أحسست بلذة من جراء هذا التفتيش عن أشكال جديدة للشعر ، تجرب للمرة الاولى في لغتنا ، وهذه السخرية المحببة التي تتلألأ هنا وهنالك ، وهذا الميل الى الدعابة الذي يظهر ليس فقط في الكلمات بل ايضاً ولا سيما في الاوزان والقوافي . واعجبت بهذا النقل الواعي للشعر الصافي الى لغتنا . كان هذا بمثابة تجديد جريء ولكن دون قطع خيط الماضي ، وكنت ألمس شعوراً بالمسؤولية واحتراماً للغة . وقلت لجورج بأن كتابه أعجبني ، وسألته ما هي مشاريعه ؟ فأجابني بشيء من التردد : « لم أقرر بعد ما اذا كنت سأنشره ام لا . سأفكر في الامر » .

وفكر مدة من الزمن ، وألححت عليه بنشره ، وكثيرون من اصدقائه المقربين ألحوا عليه بذلك . وأخيراً ظهر الكتاب . واذ كان تحت تصرفي بضعة اعمدة من جريدة « البرويا » ، فقد اعتزمت ان اقدمه الى الجمهور . وظهر مقالي بعنوان « ستروفي » في الصفحة الاولى بتاريخ ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٣١ .

وشعر سفيريس بشيء من الغبطة ، وقال لي : « ان زملائي في الوزارة مذهولون من ان اسمي يرد هكذا في الصفحة الاولى من الصحف » .

وقد سألت ذات يوم سفيريس اذا كان يجد لذة في عمله كدبلوماسي ، واذا كان ينظر اليه بعين الجد ؛ فأجاب مترددا وهو يفكر ، بشيء من الحرج والضيق كما يحدث له دائما كلما سئل عن اشياء حقيقية :

« انه لأمر جلل ان يهتم المرء باليونانيين المبعثرين في بلاد كانوا يزدهرون فيها فيما مضى ، وحتى في العالم كله . عندما نفكر في ذلك ، فانه من المؤكد اننا ننظر الى مهمتنا بعين الجد . كل هؤلاء اليونانيين ... »

وفي ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، يوم دخول الجيش الالماني مدينة باريس ، كيف قيض لي ان ألقى سفيريس في ذلك المساء ؟ هل كان ذلك من قبيل الصدفة ام باتفاق مسبق ؟ لا استطيع الجواب على ذلك. المهم اننا جلسنا في موضع ما في ساحة الدستور. لقد كان الجو مشحونا بالفزع ، وكان قد حدث قبل اجتماعنا بساعات قليلة ان شابا انكليزيا لم يستطع ان يتحمل فكرة الهزيمة فانتحر بقذف نفسه من احدى نوافذ فندق الملك جورج بينما كانت حركة السير على اشدها. وكان دمه قد سقى الساحة وأضفى ألوانا فاقعة على الغصة التي كانت تعتلج في نفوسنا .

وقد كتبت في مذكراتي الحميمة :

« لقد لاحظت مرارا بأنني على وفاق اكبر مع سفيريس في اثناء المصائب ، عندما تميد الاشياء التي احببناها في الصغر ، الاشياء التي كونتنا نهائيا في اعتقادي : نظرة خاصة الى حرية الفكر ، وشعور بيونان يمتزج فيه شعور بالغرب وعلى الاخص فرنسا ، وروحية معقدة تغذيها مصادر عدة ولكنها تبقى في الاساس فرنسية يونانية . عندما كان كل ذلك في خطر ، كنا نشعر كأننا اهل ، كأننا عضوان في عائلة واحدة حلت بها مصيبة . في حين انه في غير هذه الظروف كان يسود علاقاتنا ما يفرقنا ، ونضحي غريبين الواحد عن الآخر. وكل الذين احبوا باريس مثلنا احسوا في ذلك النهار بشيء يشبه الألم الجسماني العنيف .. »

كنا مذهولين ، محطمين بلا ارادة ، فارغين تماما . كان يلوح الينا بأنه قد سقطت مع باريس ثقافتنا وحضارتنا ، وعالمنا وزمننا ؛ بأن كل شيء قد اختفى من حولنا واننا أقمنا في الفراغ . لكأن كل هذه الكتب التي احببناها ، وهذه التيارات الفكرية ، وهذه

الوجوه الكبيرة التي عاشت ما بين الحربين ، وأساتذتنا ، لكأن كل ذلك قد زال وذلّ وأضحى بلا جدوى بتأثير القوة الغاشمة . وكأننا نحن ايضاً قد اصبحنا بلا فائدة .

وأفضيت الى سفيريس بمكنونات صدري ، وقلت له بأنني لا استطيع في هذا الجو ان اتطلع بجد الى عملي الادبي ، وان كل ما حققته حتى الآن يبدو عديم المعنى تماماً ، وان بي ميلاً الى هجر القلم .

فقال لي :

« وانا الذي اعيد طبع اشعاري في هذه الايام ، احس بأني لست اكثر من مهرج . ولكن مهما يكن من امر فانه يلوح لي ان هذه الاشعار هي بمثابة الوصية » .

فقلت : « وصية ؟ ولماذا الوصية ؟ »

لم يكن يدري !

وتحدثنا ، مع فواصل من الصمت ؛ وتكلمنا على مجرى الحرب وعلى السياسة العامة وعلى الحركة الادبية التي استطعنا مع بعض الرفاق من جيل ١٩٣٠ ان نوقفها على رجليها والتي يجب ان ننظر اليها على انها انتهت . لقد احسسنا في ذلك المساء بانحلال عصبنا النهائي . لقد حطمت الحدثان بقية تاريخنا الثقافي والادبي كما حدث سنة ١٩٢٢ . واتفقنا على ان يتبع كل منا في المستقبل مصيره الخاص به .

ولكن الايام المليئة بالأحداث من خريف ١٩٤٠ أعادت الينا الايمان . وعدنا الى الاعتقاد بضرورة الكفاح وبإمكانية النصر وبقوة الحرية .

وفي اوائل الحرب الايطالية اليونانية ذهبت اجتمع بسفيريس في مكتبه في قسم الصحافة الاجنبية ، الذي نقل زيادة في الحيطة الى مبنى شركة التأمين الوطنية بشارع كوراي . واخذنا نتكلم عن الحالة ، واستطعت ان احصل على بعض الاخبار . وقد ايقظ فينا الايمان بالجهاد الذي نقوم به بعض المشاريع الكتابية .

ولو اردت ان ارسم مخططاً لجذور سفيريس الروحية لتوجب عليّ ان أميّز بين ثلاث مراحل تتراكب وكأنها طبقات الارض :

ففي الطبقة الاولى ، وهي الاعمق ، يوجد البيت الأبوي ، واللغة المحكية ، والتراث الادبي لهذه اللغة الحية ، واساتذة تركيا اليونانيون ومعرفتهم المتينة باليونانية القديمة ، لغة هوميروس وهيرودوت وافلاطون ، وذكريات مدن بيزنطة القديمة .

وفي الطبقة الثانية توجد فرنسا مع جماع ثقافتها التي يتوجها راسين وشعرها الحديث من بودلير الى فاليري، والتيارات الادبية بعد الحرب العالمية الاولى كما ترى من منظار باريس.

اما الطبقة الثالثة فانها مكونة من ت. س. اليوت والمحاولات الشعرية التي قام بها الشعراء الانكلوسكسونيون المحدثون من بعده.

ان عالم سفيريس الروحي كان دائماً الشعر اكثر من كل شيء آخر، الشعر واللغة كآلة للشعر. واذا استثنينا كتاباته عن ماكريانيس، وهو قائد يوناني قديم، وعن تيوفيلوس، وهو رسام ساذج، فان محاولاته هي في الحقيقة دراسة واحدة ذات مظاهر متعددة عن الشعر. انه يعرف معرفة عميقة شعر اليونان، قديمه وحديثه، وشعر فرنسا وانكلترا. ولا اعتقد انه يوجد عندنا، منذ بالاماس، رجل وعى مشاكل اللغة الشعرية كما وعاها سفيريس.

لقد كانت هزيمة آسيا الصغرى اكبر حدث نفساني في حياتـــه، اذ اطاحت بآماله واحلام طفولته وصباه. وهذا يفسر ما في تراثه من الشعور بالفراغ والعنّة الوطنية وآلام المنفى. وهذا ايضاً ما يفسر كلمة « الغرق » التي تتردد في كتاباته. الواقع ان هناك شيئاً غرق في احد ايام آب (اوغسطس) في مرفأ ازمير، وكان يدعى الامبراطورية اليونانية.

والذي يبدو ان سفيريس لم يشعر بميل نحو الافكار الفلسفية والاخلاقية والاجتماعية. انه يعترف بذلك في قوله : « ان الافكار المجردة لم تكن مضماري في يوم من الايام. ان عملي متلخص في ان اكون متنبهاً الى ما تقوله الاشيـــاء ». ومع ذلك فاننا نلقى عنده شعوراً بوطنية جريح، فيه الكثير من المرارة والعذاب والحنين الى كل ما هـــو عظمة اليونان، وكأنه حنين من هو في المنفى.

اما في المسرح فقد احب اكثر ما يكون المسرحيات الشعرية، ولكنه احبها نصوصاً مكتوبة. اما التمثيل فقد كان يزعجه بقدر ما كان يخون صفاء الكلمة الشعرية. وقـــد قرأ بعمق بعض المؤلفين الناثرين، كستندال وفلوبير وبروست وجيد وجويس وكثيرين غيرهم. ولكني سمعته اكثر من مرة يقول (وقد صرح بذلك على المـــلأ بمناسبة منحه جائزة نوبل) ان فن الرواية لا يهمه.

لقد عرضت هنا بعض الانطباعات الشخصية عن صداقة تستمر منذ مدة طويلة، مع بعض الفواصل المديدة؛ ومن الممكن اني قد اخطأت في بعض النقاط. ولكن الشاعر ما زال بيننا، وهو يستطيع اذا اراد ان يكمل او ان يصحح هذه الدراسة الموجزة.